





ضرب الإسكندرية

. كانت إنجلترا تستعد للحرب قبل انعقاد مؤتمر الأستانة وخلال اجتماعه وقبل أن يقرر قراره بدعوة تركيا إلى إرسال جيش لها إلى مصر.. وأخذت تدبر الأسلوب والذرائع للتعجيل بضرب الإسكندرية، لكي تضع المؤتمر أمام الأمر الواقع .

فأوعزت إلى الأدميرال إلى سيمور قائد الأسطول البريطاني أن يخلق أية وسيلة للتحرش بمصر لإثارة الحرب عليها، أي أنها أخذت تخلق " الحالة القهرية " التي أشر إليها اللورد دفرين في مؤتمر الأستانة واشترط إضافتها إلى قرار الامتناع وكان يستعين برأى الجالية البريطانية في خلق أسبابه، ووجد على الأخص من السير أوكلن كولفن الرقيب المالي الإنجليزي عوناً كبيراً له في ذلك.. إذ كان من أشد غلاة الاستعمار ومن الداعين إلى احتلال مصر. وكان بعد رحيل السير أدوار مالت الممثل الفعلى لبريطانيا في مصر، فلا غرو أن كان على اتصال دائم بالأسطول .

ولم يكن أسهل على القوة الغشوم من أن تخترع الوسيلة لإثارة القتال.. فقد أرسل الأدميرال سيمور في أول يولية سنة ١٨٨٢ إلى مجلس الأميرالية الإمبراطورية ينبئها أنه اكتشف بعض ترميمات يقوم بها المصريون في حصون الإسكندرية، وأنهم يركبون بطاريات جديدة تجاه بوارجه، وأن الاستعدادات الحربية قائمة في البلاد، وأن عرابي معتمد سد بوغاز الإسكندرية لحصر البوارج الإنجليزية التي كانت راسية في الميناء .

وبديهي أن هذا الاكتشاف إنما كان وسيلة مختلفة لتسويق الشر

والاعتداء، فإن أية ترميمات تجرى فى الحصون لا يمكن أن تكون وسيلة مشروعة لإثارة الحرب والقتال، إذ كل دولة حرة فى أن تقوى معدات الدفاع فى بلادها، بل واجب عليها أن تفعل ذلك فى كل وقت . . وخاصة فى مثل تلك الظروف العصيبة التى كانت تجتازها مصر، فإن مجرد حضور الأسطول البريطانى فيه معنى التهديد بالتدخل المسلح، على أنه يكن ثمة ترميمات جديدة تخيف الأسطول الإنجليزى تشغل باله .

وقد أجابت الأميرالية الإنجليزية فى ٣ يولييه على برقية الأميرال سيمور بأن يمنع كل محاولة لسد بوغار الإسكندرية، ورخصت له بأن يطلب وقف الأعمال الجارية فى الحصون، وفى حالة الرفض فليدمرها بمدفعه .

وتدل الدلائل والبيانات على أن الحكومة البريطانية كانت مبيتة نيتها على ضرب الإسكندرية واحتلال البلاد مهما كانت الأسباب والملاسات، وذلك قبل اختلاف حكاية ترميم الحصون، وأنا ذاكرون هذه الشواهد فيما يلى :

أولا - فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٢ عرض سفير إنجلترا فى باريس على الحكومة الفرنسية الاشتراك فى اتخاذ وسائل ذى فريسنيه رئيس وزارة فرنسا أن لا خطر مطلقا يتهدد الحماية التى يراد فرضها عليها لأن احتلال القناة قد يؤدى إلى قط ترعة الإسماعيلية واستهداف القناة البحرية ذاتها لأعمال عدائية، وختم دى فريسنيه دوابه بأن احتلالها عمل لا مسوغ له .

ثانيا - يقول المستر بلنت أن وزارتى الحرب والبحرية فى إنجلترا عقدت النية منذ أوائل سنة ١٨٨٢ على مهاجمة مصر من ناحية قناة السويس، وشاهد بنفسه الاستعدادات الحربية فى إنجلترا فى شهر يونيه سنة ١٨٨٢، وكان يعتقد أن الغرض منها تقوية مركز إنجلترا فى مؤتمر الأستانة، ولكن تبين له فيما بعد أن الغرض منها مهاجمة مصر .

ثالثا - موقف إنجلترا في مؤتمر الأستانة وإصرار اللورد دفرين على وجوب التدخل الحربي في شؤون مصر لقمع الثورة، وإضافته كلمة (الحالة القهريه) إلى قرار الامتناع عن التدخل المنفرد كما تقدم بيانه، كل ذلك يدل على ما كانت تضره من التدخل بمفردها.

رابعا - منذ إن جاء الأسطول البريطاني في مايو تعاقد مع تجار الأطعمة على توريد المؤن اللازمة للأسطول لمدة ثلاثة أشهر. . وليس هذا عمل أسطول جاء لوقت محدود بقصد حماية أرواح الأجانب كما قال الإنجليز عند حضوره.

خامسا - أرسل الميسو سنكفكس قنصل فرنسا العام إلى الميسو دى فريسينيه رئيس وزارة فرنسا برقية من الإسكندرية في ٢٨ يولية سنة ١٨٨٢ يقول فيها: "إن هجرة الأوربيين مستمرة والشعور العام هنا أن التدخل الإنجليزى أصبح وشيك الوقوع ولم يبق فى القنصلية الإنجليزية إلا كاتبان يسجلان أسماء الإنجليز الذين يرغبون البقاء فى مصر"

سادسا - أرسل الميسو دى فورج De Forges قنصل فرنسا العام إلى الميسو دى فريسينيه برقية من الاسكندرية يوم ٤ يولية يقول فيها: "كل الدلائل تدل على أنه سيقع عمل حربي عاجل من الإنجليز سواء باشتراكنا أو بدونه"

سابعا - اعترف الأميرال سيمور فى يوم ٦ يولية سنة ١٨٨٢ بأن أعمال الترميم التى زعم أنها كنت جارية بها لغاية يوم ٥ يولية أوقفت ومع ذلك أصر على الضرب.

ثامنا - تدبير مذبحه الإسكندرية من الأدلة على تبويت إنجلترا النية على الاحتلال.

تاسعا - عهدت وزارة الحربية البريطانية إلى المستشرق الأستاذ بالمر Palmer بالمجيء إلى مصر وارتداد صحرا سينا لرشوة القبائل البدوية بين قناة السويس وغزة قبل نشوب الحرب، وقد حضر، وقابله المسيو جون نينيه فى الإسكندرية عرضا فقال له الاستاذ بالمر: "أنصحك بمغادرة القطر المصرى لأن الإسكندرية ستضرب بالقبائل عما قريب وستكون عرضة لأن يقتلك الأهلون".

وقد قام الاستاذ بالمر بمهمته، ولكن قتله البدو هو وصحبه. وحوكم قتلهم عقب الاحتلال فحكم عليهم بالإعدام!

كل هذه الشواهد والنيات تدل على سبق إصرار إنجلترا على ضرب الإسكندرية واحتلالها مهما كانت الأحوال، أو اختلفت الأسباب

التحضر للضرب

فى ٦ يوليه أرسل الأميرال سيمور إلى طلبة عصمت قومندان موقع الاسكندرية بلاغا أو بالكف عن أعمال التحصين الجارية فى الحصون. فأجابه طلبة فى اليوم ذاته بأنه لم يوضع أى مدفع جديد فى الحصون ولم يجر فيها أى عمل جديد، فأيقن العارفون بحقائق الأمور أنه نذير الشر، وأن الحرب واقعة لا محالة. وأوعز قنصلا إنجلترا وفرنسا إلى رعاياهما الباقين بالمدينة بالمبادرة إلى الرحيل عنها، فتسابقوا إلى الهجرة والنزول إلى السفن التى بالميناء. وبلغ عدد المهاجرين الأوربيين منذ حوادث يونيه إلى ما قبل الضرب نحو ٩٩ فى المائة من عددهم الأسمى، وهاجر كثير من سراة المدينة إلى داخل البلاد، على أن معظم الأهلىن بقوا بها.

لم يقتنع الأميرال سيمور بجواب طلبة باشا. وهيهات أن يقتنع، لأنه إنما يبغي من جوابه أن يخلق سببا مكذوبا ليتذرع به إلى الضرب.

وإمعانا فى التحرش بعث الأدميرال إلى طلبة باشا عصمت بلاغا آخر
يمهد به إلى الإنذار النهائى ، هذه ترجمته :

" البارجة انفسبل فى ٦ يوليه سنة ١٨٨٢

" صاحب السعادة . . اتشرف بإخباركم إنى علمت من طريق رسمى أنه
قد صار البارحة تركيب مدفعين جديدين أو أكثر فى خطوط الدفاع القائمة
على البحر وأن بعض استعدادات حربية قد عملت فى واجهة الإسكندرية
الشمالية تحديا للأسطول الذى تحت قيادتى ، فيجب على والحالة هذه أن أنبه
عليكم بوقف هذه الأعمال فإن لم تقف وتجددت يكون واجبا على تدمير
المعدات الجارى العمل فيها " .

فرد عليه طلبة باشا عصمت بالجواب الآتى :

" عزيزى الأدميرال الإنجليزى

" اتشرف بأن أنبئكم بوصول خطابكم المؤرخ ٦ يوليه الذى تخبرونى فيه
أنه اتصل بكم تركيب مدفعين وأن أعمالا أخرى جارية على شاطئ البحر . .
فردا على ذلك أود أن أؤكد لكم أن الأخبار المذكورة لا حقيقة لها ، وأن هذه
الأخبار مثل خبر التهديد بسد مدخل البوغاز الذى اتصل بكم وتحققتم كذبه .
" هذا وأنى لمعتمد على عواطفكم المتشعبة بروح الإنسانية وأرجو قبول
احتراماتى " .

ولم يكتف الأدميرال سيمور بطلب منع التحصين ، بل طلب أن تسلم له
الحصون التى يزعم أنها تهدد الأسطول ! وفى صبيحة ١٠ يوليه أرسل إلى
طلبة باشا عصمت انذارا نهائيا يطلب فيه تسليم البطاريات المنصوبة فى

الحصون القائمة بشبه جزيرة رأس التين وعلى ساحل ميناء الإسكندرية الجنوبي
وإلا ضرب الحصون فى صبيحة الغد - ١١ يوليه - ومعنى ذلك تسليم
الحصون فى صبيحة الغد - ١١ يوليه - ومعنى ذلك تسليم الحصون ذاتها .

وهذا نص الإنذار النهائى :

"اتشرفت بأخبار سعادتكم أنه نظرا لأن الاستعدادات العدائية الموجهة
ضد الأسطول الذى أتولى قيادته وأخذه فى الازدياد طول يوم أمس فى طوابى
صالح وقايتباى والسلسة فقد عقدت العزم على أن أنفذ غدا - ١١ الجارى -
عند شروق الشمس العمل الذى أعربت لكم عنه فى خطابى المؤرخ يوم ٦
الجارى أن لم تسلموت إلى حالا قبل هذه الساعة البطاريات المتوصبة فى شبه
جزيرة رأس التين وعلى شاطئ ميناء الإسكندرية الجنوبي لتجريدها من
السلاح ."

وعقد الخديو سراى رأس التين مجلسا عاما دعا إليه الوزراء وكبار
رجال الدولة ليستشيرهم فى الموقف وفيما يجب أن يكون عليه جواب
الحكومة على الإنذار النهائى . فاستقر رأى المجلس على رفض مطالب
الأميرال . .

وفى المساء حذر الوزراء الرد على الإنذار النهائى طبقا لقرار المجلس
وهذا نصه : "لم تعمل مصر شيئا يقضى بإرسال هذه الأساطيل المتجمعة ،
ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الأميرال
إلا بعض إصلاحات اضطرارية فى ابنية قديمة ، والطوابى الآن على الحالة
التي كانت عليها عند وصول الأساطيل . ونحن هنا فى وطننا وبيتنا ، فمن
حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا د كل عدو مباحث يقدم على

قطع أسباب الصلات السلمية التي تقول الحكومة الانكليزية أنها باقية بيننا .
ومصر الحريضة على حقوقها الساهر على تلك الحقوق وعلى شرفها لا
تستطيع أن تسلم أى مدافع ولا أى طالبة دون أن تكره على ذلك بحكم
السلاح . . فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتوقع
مسؤوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم إما عن هجوم
الأساطيل أو عن إطلاق المدافع ، على الأمة التى نقذف فى وسط السلام
القنبلة الأولى على الإسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لأحكام حقوق
الإنسان ولقوانين الحرب " .

يتضح من البيانات والمراسلات المتقدمة أن الإنجليز كانوا مصممين على
احتلال الإسكندرية سواء ضربوها أو لم يضربوها وسواء قبلت طلباتهم فى
الإنذار النهائى أو لم تقبل ، ولم تكن الوسائل السلمية كافية مجدية فى منعهم
عن تنفيذ ما عزموا عليه . . فالمجلس العام الذى اجتمع برئاسة الخديو وقرر
رفض الإنذار كان على حق فى قراره . ولو أنه قرر التسليم بمطالب الأميرال
سيمور لما كان يؤدى إليه التسليم أن يقع الاحتلال دون مقاومة من جانب
مصر ، ولم يكن هذا موقفا مشرفا ، فليس الخطأ فى رفض مطالب الأميرال ،
بل الخطأ فى الإنقسام الذى كان واقعا بين الخديو والعرايين ، وكان عليهم أن
يتلافوا ذلك الإنقسام الذى أضعفت الجبهة المصرية فى ساعة الخطر ، ولكن
كلا الفريقين لم يبذل سعيًا جديدًا فى تلافيه ، وكلاهما مخطئ من هذه
الناحية .

الحصون والأسطول

يحمل بنا قبل أن نتكلم عن وقائع الضرب أن نقابل بين القوتين المتحاربتين، لأن من هذا البيان يتضح من كان مقدارا له الفوز والنصر.

كان بالإسكندرية فى ذلك الحين عدة حصون تسمى "طوابى" جمع طابية، وهذا الاسم متداول حتى اليوم بين سكان الثغر، ولا يزال بعض هذه الحصون (الطوابى) قائما حتى اليوم تبدو عيه آثار الخراب، وبعضها لم يبق له وجود.

وهذه الحصون كانت تمتد على شاطئ البحر من ناحية العجمى غربا إلى أبو قير شرقا. فأولها من الغرب طابية "العجمى"، وهى قائمة فى جزيرة العجمى التى يسميها الإفرنج جزيرة المرباط - أو ماربوت كما يكتبونها - ولذلك العجمى وتسمى أيضا طابية العجمى البحرية تميزا لها عن طابية العجمى القبلية التى سيرد الكلام عنها.

واكنت طابية العجمى البحرية من أمنع حصون الإسكندرية، ويوجد تجاهها على اليابسة طابية أخرى تسمى طابية العجمى القبلية، وتعرف أيضا بطابية "العيانة"، وهذه التسمية معروفة بين أهل هذه الجهة واردة كذلك فى خريطة مصلحة المساحة. ولم تكن لها أهمية حربية، بل لم تشترك فى الضرب إذ لم يكن تم إنشاؤها. ويلى هذه الطابية شرقا طابية "الدخيلة"، ثم قلعة "المكس" وكانت من أمنع القلاع، ومهمتها الدفاع عن مدخل الميناء "البوغاز"

ويلى قلعة "المكس" على طول الشاطئ الجنوبي للميناء عدة حصون واستحكامات، وهى البرج نمرة ١٥، فطابية "القمريّة" فطابية "أم قبيبة"، ثم برج مستدير فيه مدفعان، ثم طابية "صالح".

وعند "باب العرب" طابية تسمى طابية باب العرب تعادل طابية المكس فى تسليحها، وتقل لسان الأرض السواق بين البحر وبحيرة مريوط، وهى واقعة إلى ما وراء المقطع القديم الذى خرقة الإنجليز عام ١٨٠١ قبل خروجهم من مصر ليدخلوا به مياه البحر إلى بحيرة مريوط فأغرقت يومئذ قرى كثيرة وتحولت به صحراء واسعة يابسة إلى مستنقع ردى.

وفى شبه جزيرة رأس التين عدة حصون تحمى الميناء من الجهة الشمالية، وهى طابية "الفنار" التى تحيط بفنار الإسكندرية وتشرف على الميناء، فطابية "رأس التين" الواقعة شمالى سراى رأس التين، فطابية الاستبالية.

وتلى هذه الحصون شرقا طابية "الأطة" وهى كلمة تركية تنطق أضه وتعنى الجزيرة، وتسمى فى الإسكندرية طابية القضا - الواقعة شرقى حمام الأنفوشى - ثم طابية "الهلالية" ثم طابية "قايتباى" التى يسميها الأوربيون حصن "فاروس" ومهمتها حماية المدينة من الجهة الشمالية الشرقية، وحماية الميناء الشرقى، يقابلها من الطرف الشرقى لهذا الميناء طابية "السلسة"

"وبلى طابية "السلسة" شرقا قلاع أبو قير، وهذه لم تشترك فى القتال لبعدها عن ميدانه، وبداخلى المدينة طابية "كوم الناصورة" وطابية "كوم الدكة" وتعرف أيضا بكون الدماس.

وكان يحيط بالمدينة من جهة اليابسة سور قديم يسمى السور العربى الذى كان باقيا منه إلى عهد قريب بعض آثاره بجهة باب رشيد "باب شرقى"، وهو سرور حصين به أبراج للمدافع.

وهذه الحصون منشأة من عهد محمد على، ما عدا كوم الناصورة كوم الدكة فإنهما منشآن من عهد الحملة الفرنسية، وقلعة "قايتباى" المنشأة فى

القرن الخامس عشر، وكانت الحصون سنة ١٨٨٢ بحالتها التي كانت عليها في عهد محمد علي وإبراهيم وعباس. وقد أجرى فيها إسماعيل بعض الترميم وجلب لبعضها المدافع الضخمة من طراز أرمسترنج، وهي التي كانت تضاهي مدافع الأسطول البريطاني، وكان عددها ٤٩ مدفعا، أما المدافع الأخرى فلم يكن يعتمد عليها في الضرب لقدمها وضعفها وقرب مرماها، ولم تكن لها أية قيمة حربية في سنة ١٨٨٢، وهي معظم مدافع الحصون إذ كان عددها ٢٢٩ مدفعا والأهون وعددها أربعون.

وكانت حامية الحصون مؤلفة من آلاى طوبجية السواحل ومجموع قوته الرسمية ١٧٦٢ مقاتلا بين جنود وضباط عددهم الحقيقي كان دون ذلك، ويقول عرابي في مذكراته أنه لم يزد عن سبعمائة يوم الضرب، ويقول المسيو جون نينه الذي شهد ضرب الإسكندرية أن نصف رماة القنابل "الطوبجية" كانوا متعبين في قراهم بحجة الاقتصاد والتوفير، وهذا يفسر نقصان عددهم يوم الضرب. وقال أن الأميرال سيمور كان موقنا قبل الضرب أنه لن يلقى وفي ميدان القتال سوى هيكل محارب قديم كان شاكى السلاح بالأمس ثم صار شبحا لا حراك فيه، وقال في موضع آخر يصف إهمال حالة الحصون: "إن معظم المدافع القصيرة المرمى لم تتحرك من موضعها منذ نحو ثمان وثلاثين سنة حين ركبها لأول مرة جاليس بك Galice Bey مفتش الاستحكامات في عهد محمد علي. . أما المائة مدفع وواحد من مدافع أرمسترنج من عيار تسع إلى عشر بوصات، فكان منها ٦٤ فقط مركبة في مواضعها، وأما ذخائرها فإنها لم تنقل من مخازنها بالترساة".

يخلص مما تقدم بيانه أن الدفاع عن المدينة كان ضعيفا متخاذلا، وأن

القوة التي واجهت الضرب لم تتجاوز ٧٠٠ مقاتل . . أما حامية المدينة فلم تشترك في القتال، وكانت مؤلفة من أربعة أليات: اثنان منها كانا مرابطين أصلا في المدينة، وهما الألاي الخامس من المشاة بقيادة الميرالاي مصطفى بك عبد الرحيم برأس التين، والألاي السادس بقيادة الميرالاي سليمان بك سامي داود، ويتألف من هذين الألايين اللواء الثالث بقيادة خورشيد باشا طاهر، والجميع بقيادة الفريق إسماعيل باشا كامل. وقد زيد عليهما ألا بأن يعد مذبح الإسكندرية، وهما الألاي الثاني بقيادة خليل بك كامل. والرابع بقيادة عيد بك محمد، ويتألف من هذين الألايين اللواء الثاني بقيادة طلبة باشا عصمت الذي جعله عرابي قائدا لموقع الاسكندرية وحاميتها.

ويقول عرابي أن كل ألاي من المشاة كان مؤلفا من ٣٠٠٠ مقاتل فيكون مجموع الجند يوم ضرب الإسكندرية ١٢٠٠٠ من البيادة " المشاة " و ٧٠٠ من الطوبجية .

أما الأسطول البريطاني فكان مؤلفا من ثماني مدرعات كبيرة وخمس سفن مدفعية وسفينة للطريد وأخرى كشافة .

ومعظم مدافع هذا الأسطول من طراز أرمسترنج وعددها ٧٧ مدفعا، والأسطول من هذه الناحية كان أقوى سلاحه من الحصون، وكان يفوقها في سرعة تحركه وابتعاده عن الهدف، على حين أن الحصون كانت مستقرة يسهل على الأسطول رميها بمدفعه فيصيبها. وكانت خطته في الضرب أن تجتمع عدة بوارج فتصوب نيرانها نحو حصن واحد، فتدمره أو تسكنه، ثم تتحول إلى الحصن الذي يليه . . وهكذا تستطيع أن تدمر الحصون حصنا بعد حصن، بينما الحصون لا تستطيع أن ينجد بعضها بعضا، فهذه المقابلة وحدها تنبئ

مبدئيا بمصير الضرب وتدل على أن كفة الأسطول البريطاني كانت أرجح بكثير من كفة الحصون المصرية.

أصدر الأميرال سيمور يوم ١٠ يولييه سنة ١٨٨٢ تعليماته إلى بواجه لكي تأخذ موافقها يوم الضرب على الترتيب الذى وضعه.

واتخذت البوارج موقفها على هذا النحو ليلة الضرب. . أما عن الاستعداد للضرب من ناحية الحصون، فقد استدعى عرابى تلك الليلة الأميرالاي إسماعيل بك صبرى قومندان حصون الإسكندرية. وكان عرابى وقتئذ " بالترساةة " يصحبه محمود باشا فهمى وطلبة باشا عصمت ومحمد باشا كامل وكيل نظارة البحرية، وأصدر إليه تعليماته، فانصرف إسماعيل بك صبرى والتقى بضابط الحصون ووزع كلا منهم فى مركز عمله.

وأصدر أيضا تعليماته بتوزيع جنود الحامية على خطوط الاستحكامات من برج السلسة شرقا إلى قلعة العجمى غربا وفى ليلة ١١ يولية كات البوارج الإنجليزية على أهبة القتال، أما الأسطول الفرنسى فقد انسحب إلى بور سعيد تنفيذا لتعليمات حكومته، ولم يترك سوى سفيتين لم تعمل عملا ما. . وهكذا ترك الفرنسيون الإنجليز وحدهم ينفرون بالضرب والقتال، ولو اشتركوا معهم لتغير وجه المسألة بالضرب ولما استطاع الاحتلال الإنجليزى أن يثبت أقدامه فى البلاد.

أساسة الضرب

فى الساعة السابعة من صبيحة يوم الثلاثاء ١١ يولييه سنة ١٨٨٢ أعطى الأميرال سيمور إشارة الضرب. . فأطلقت البارجة " الكسندرا " أول قنبلة على طابية الاستبالية، وتلتها البوارج الأخرى. فأخذت تطلق قنابلها المدمرة على

حصون المدينة وعلى المدينة ذاتها. أما القلاع فلم تجب على الضرب إلا بعد الطلقة الثالثة، بعد خمس دقائق، وكان الضرب من جانب الأسطول الإنجليزي شديدا مروعا، فكانت قنابله محكمة المرمى شديدة الفتك، أما مدافع القلاع فكانت ضعيفة متراخية، وسقط كثير منها في البحر دون أن تصل إلى البوارج الإنجليزية.

وكانت البوارج أثناء الضرب تتحرك في سيرها، يحجبها عن الأعين دخان كثيف فلا يستطيع الرماة المصريون إحكام المرمى وإصابة الهدف منها، وكل بارجة تحيط بها شبكة من الفولاذ إذا أصابتها قنبلة من قنابل الحصون صدرت قوتها بحيث تضعف إذا نفذت إلى البارجة ذاتها. وقد ساعد على إحكام المرمى من جانب الأسطول أن الاستعداد الحربى من ناحية الإنجليز أقوى وأعظم منه من جانب القلاع المصرية إذ كانوا مطلعين على دقائق الاستحاكمات ومبلغ ما بها من المدافع والميرة والذخيرة ومخاون القنابل فيها، بخلاف العرابيون فإن معلوماتهم عن قوات الإنجليز كانت مشوشة ضئيلة، وكانوا يظنون أن البوارج الإنجليزية لا تقوى على هذه القلاع ولا تقف أمام مرعى قنابلها. وقد لا تقوى على هدم القلاع ولا تقف أمام مرمى قنابلها. وقد اتضح عكس ما يظنون، فإن البوارج قد دكت الحصون وعطلت مدافعها، فى حين أن الأسطول الإنجليزي لم يصب بضرر كبير.

استمر الضرب من الساعة السابعة إلى الساعة الحادية عشرة على أقصى ما يكون من الهول والشدة، وقنابل الأسطول تقذف الخراب وتحصد الأرواح. ثم سكتت قليلا واستؤنف الضرب بعد هنيهة حتى الساعة الثانية بعد الظهر، ثم وقف هنيهة أخرى، ثم استؤنف بعد ذلك إلى منتصف الساعة السادسة مساء قبل الغروب بساعة.

وقد تهدمت حصون الفنار ورأس التين والاسبتالية في منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر، حيث اجتمعت عليها بالمدرعات الكسندرا وسلطان وسوبرب، ولما أسكتتها صوبت قنابلها إلى قلعة "الأطه" وعاونتها في ضربها المدرعتان انفلكسييل وتميرير المدرعات الخمس نيرانها على تلك القلعة فدمرتها بعد أن نسفت مستودع البارود فيها، ثم تحولت إلى قلعة "قايتباى" وظلت تقذفها بقنابلها إلى الساعة الخامسة ماء فخربتها.

وفي المنطقة الجنوبية من الساحل ضربت المدرعات انفسيل وبنلوب ومونارك وانفلكسييل وتميرير حصون المكس وأم قبيية والدخيلة فأسكتتها في منتصف الساعة الثانية عشرة، واتجهت السفينة كوندور إلى قلعة العجمى فضربتها بالقنابل حتى أسكتتها.

وفي نحو الساعة الأولى بعد الظهر شاهد الأميرال سيمور أن هذه الحصون قد أخلاها الجنود فأرسل عشرين بحارا إلى البر دخلوا قلعة "المكس" وأتلفوا مدافعها ثم عادوا إلى اسفنهم آمنين.

وفي منتصف الساعة الرابعة شوهدت مدافع طابية "القمريه" تتأهب للضرب. . . وعاد الجنود إلى قلعة "المكس" المذكور وأخذت في ضربة حتى منتصف الساعة السادسة مساء حيث أمر الأميرال سيمور بالكف عن القتال، فوقف الضرب بعد أن استمر عشر ساعات متوالية.

وقد دافعت الحاميات عن الحصون دفاع المستميت، وقام رجالها بواجبهم قدر ما استطاعوا. . . ولكن قوة الأسطول رجالها بواجبهم قدر ما استطاعوا. . . ولكن قوة الأسطول ومدافعه كانت لها الغلبة في هذا اليوم المشؤم، فتهدم معظم الحصون، وأصابت قنابل الأسطول كثيرا من مساكن الأهليين فدمرتها وأحرقتها، كما أحرقت جناح الحرم بسرأى رأس التين.

وتفانى الأهلون فى الدفاع عن المدينة، على رغم أن الحرب كانت حرب مدافع وحصون وبوارج. فبذلوا كل ما فى استطاعتهم من تضحية وإقدام. وقتل من المصريين خلال هذه الفظائع نحو ألفين، ولم تزد خسائر الإنجليز على خمسة من القتلى وتسعة عشر جريحاً..!

وقد استيقن العرابيون يوم ١٢ يوليه أن الإنجليز لا بد محتلون الإسكندرية بعد أن دكوا حصونها، فاستقر عزمهم على الانسحاب من المدينة ليستعدوا للمقاومة فى الداخل، وكان الأحكم أن يقاوموا نزول الجنود الإنجليزية إلى البر بأن يوزعوا جزءاً من قواتهم للمرابطة على الشواطئ ومنع رسو القوارب المقلّة للجنود الإنجليزية.. فإنهم بذلك يعطلون نزولها مدة طويلة، وبخاصة لأن الأسطول الإنجليزي لم يكن قد تلقى المدد من جنود البر. وكانت قوته مقصورة إلى ذلك الحين على جنود البحارة ولم يكن عددهم يزيد عن ٥٧٠٠ مقاتل، وهؤلاء لم يكن فى استطاعتهم أن يتغلبوا على حامية الإسكندرية.

حريق الإسكندرية

وكان فى مقدور الحامية أن تصدهم عن النزول إلى البر وتدافعهم لو حاولوا النزول.. ولكن العرابيين لم يفعلوا شيئاً من ذلك لأنهم لم تكن لديهم قيادة صالحة تدبر الخطط المحكمة للقتال، فأثروا الانسحاب من الإسكندرية، ورأوا أن يتذرعوا بكل وسيلة لتعطيل احتلال الإنجليز للمدينة واستقرارهم فيها، فأمر سليمان سامى داود قائد الألاى السادس جنوده بإضرام النار فى المدينة لكى يحول الحريق دون نزول الإنجليز بها واتخاذها قاعدة حربية لزحفهم فشبّت الحرائق الهائلة يوم الأربعاء ١٢ يوليه سنة ١٨٨٢

وبدأ إضرار النار في نحو الساعة الثانية بعد الظهر وأخذ يمتد حتى صارت الإسكندرية شعلة من النار مساء ذلك اليوم، واستمرت النار تضطرم فيها إلى اليوم التالي كان هذا الحريق من الوجهة العسكرية عملا عقيما لأنه لم يعطل نزول الجنود الإنجليزية إلى البر فقد نزلوا في صبيحة اليوم التالي، واشترك في الحريق بعض الأوروبيين وبخاصة من الأورام والمالطيين الذين بقوا في المدينة بعد هجرة معظمهم، وكانوا يقصدون من ذلك المطالبة بالتعويضات بعد انتهاء الحرب، كما اشتركوا أيضا في النهب.

ويقول جون نينه عميد الجالية السويسرية وكان شاهد عيان لهذه الحوادث أن الحرائق الأولى شبت في الأحياء الأهلية من قنابل الأسطول الإنجليزي يوم الضرب. وكان الحريق الذي أمر به سليمان سامى داود على غير رأى عرابى والوزراء، فانفرد بإحداثه سليمان داود قائد الألاى السادس الذى كان مشهور بالتهور بالحمق، وكان يعتبر نفسه عرابى آخر بالإسكندرية، وقد صمم على ألا ينسحب الجيش من الإسكندرية إلا بعد أن يجعلها خرابا. وهذا يدل على تشعب آراء العرابيين وعدم وجود وحدة من قيادتهم، لأن عملا خطيرا كحريق الإسكندرية ما كان يجب أن يحدث إلا إذا صدرت به الأوامر مجمعة من قيادة الجيش. ولكن الواقع أن عرابى لم يكن له دخل فيه ولما وقع لم يستطع أن يمنعه.

واستقر رأى عرابى وصحبه على الانسحاب من الإسكندرية ثانى يوم الضرب، فأخذ الجيش يخليها يوم الأربعاء ١٢ يولييه. وفى مساء ذلك اليوم غادرها عرابى ووصل إلى "حجر النواتية" على ترعة المحمودية بعد الغروب. وقضى الليلة هناك. وفى الصباح ركب رقاصا سار به فى الترعة حتى وصل

به إلى "عزبة خورشيد" ومنها إلى "كنج عثمان" بالقرب من كفر الدوار. واتخذ عرابي عزبة "كنج عثمان" مقرا لقيادة الجيش. . وفي صباح يوم ١٣ يوليه تحقق الأميرال سيمور انسحاب العرابيين وأنه لم يبق منهم أحد في المدينة فأنزل كتيبة من جنوده البحارة، واحتلوا سراى رأس التين وشبه جزيرة رأس التين.

أوروبا وضرب الإسكندرية

انسحبت فرنسا من الميدان، وأمرت أميرال أسطولها بمغادرة الإسكندرية قبل الضرب. . فبارحها مساء ١٠ يولية سنة ١٨٨٢. ومعنى ذلك أن الحكومة الفرنسية تركت إنجلترا تفعل ما تشاء وتعتدى ذلك الاعتداء الغشوم على المدينة فتدك حصونها وتهدم مبانيها وتحصد أرواح أهلها دون أن تبدي حراكا. . قابلت فرنسا هذا الاعتداء الوحشى بالجمود، ولو أرادت منعه لكان لها من مركزها الممتاز فى المسألة المصرية ما يحول دون وقوعه. . وكذلك فعلت دول أوروبا العظمى فإنها طلت جامدة لا تحرك ساكنا أمام هذه المأساة. . ولو وقع مثل هذا الاعتداء على أمة أوربية كاليونان أو الجبل الأسود أو بلغاريا لاهتزت الحكومات الأوربية وتوعدت وأنذرت المعتدى بالضرب على يده. .

ولعلك تذكر موقفها حيال مصر ذاتها حين لبت نداء تركيا فى محاربة الثوار اليونانيين وما فعلته أوروبا إذ ائتمرت بأسطولها فاحترقته غدرا وخيانه فى "نافارين" سنة انتصاراتها على الترك فى عهد محمد على الكبير وائتمرت بها وأنقصت المزايا التى نالتها بجهد السيف. أما فى سنة ١٨٨٢ فقد تركتها لبطش الإنجليز دون أن تحرك ساكنا!

وليس من العسير علينا أن نفهم سبب هذا التباين فى المعاملة. . فأوروبا

لا تنظر إلى مصر بالعين التي تنظر بها إلى الأمم الغربية، ولا تراها جديدة بالعطف الذي حبت به أمثال اليونان وبلغاريا. ومما يدل على مشاركة أوروبا لإنجلترا في مسؤولية حوادث سنة ١٨٨٢ أنه لم يكد الجيش الإنجليزي ينتصر على العراقيين في واقعة التل الكبير حتى بادر المسيو تيسو سفير فرنسا بلندن إلى مقابلة اللورد جرانفيل وزير خارجية إنجلترا وهناه باسم الحكومة الفرنسية على هذا الانتصار. وكان جواب جرانفيل على تهنتته "إن واقعة التل الكبير هي انتصار أوربي، ولو انهزم الجيش الإنجليزي لكان ذلك كارثة على كل الدول التي تحسب حسابا للتعصب الاسلامي!"

وقد هنا المسيو دكلرك رئيس وزارة فرنسا السفير البريطاني في باريس بهذه الواقعة قائلا: "أن انتصار الإنجليز على العرب في مصر ينتج ثمرة طيبة لفرنسا في تونس والجزائر!"

وقوبل نبا الضرب في "مؤتمر الأستانة" بالفتور والجمود، ولم يكن المؤتمر قد انفض بعد. . ولو كانت الدول الأوربية حريصة على الدفاع عن حقوق مصر بل عن الحقوق عامة، لكان لضرب الإسكندرية صدى عاجل في المؤتمر يحفزه إلى وضع حد لهذا الاعتداء. ولكنه على العكس قابله بالصمت والبرود، ولم يبد أى اعتراض على إنجلترا في نقضها عهدها، وخاصة عهدها في ذلك المؤتمر بالذات. لم يكن لهذا الاعتداء أثر فعلى في نفوس المؤتمرى وهم سفراء الدول الأوربية الكبرى في الأستانة، وكل ما فعله مندوب روسيا أن نفى يده من المؤتمر وامتنع مؤقتا عن حضور جلساته، وهو عمل سلبي لا يمنع الاعتداء ولا يحول دون استمراره.

وفى ١٥ يرييه سنة ١٨٨٢ اجتمع المؤتمر لأول مرة عقب ضرب

الإسكندرية، وتحرك إلى دعوة لإرسال جيش عثماني إلى مصر تنفيذًا لقراره الذي أصدره في جلسته السابقة - ٦ يولييه - ولم يكن قد أبلغه إليها من قبل، ورضى السلطان - أخيرا أيضا - بالإشتراك في المؤتمر للمباحثة في إقرار لوسائل الكفيلة بإعادة الأمور إلى نصابها. . بدأت إذن تركيا تشتبك في المؤتمر بعد أن أصبح لا عمل له، وأرسلت وزارة الخارجية العثمانية في ١٩ يولييه تبلغه أنها تقبل الاشتراك فيه، وعينت مندوبيها به وهما سعيد باشا وزير الخارجية وعاصم باشا وزير الأوقاف، فحضرا جلسة ٢٤ يولييه - الجلسة العاشرة - وتولى سعيد باشا رئاسة المؤتمر بصفته وزير خارجية الدولة التي انعقد المؤتمر في عاصمتها، وصرح بأن الحكومة العثمانية قبلت مبدأ إرسال جنود إلى مصر، وبجلسة ٧ أغسطس أعلن أن حكومته قبلت شروط التدخل التي قررها المؤتمر في ١٥ يولييه. . . . وكانت هذه الأقوال مهزلة أخرى، إذ لم تكن تركيا قد أعدت جيشا ما. . . وأبطأت في إنفاذ عزمها حتى انتهت الحرب بهزيمة العرايين ودخول الإنجليز القاهرة قبل أن يتحرك الجيش إلى مصر!

قناة السويس

وكل ما عنى به المؤتمر أنه بحث بجلسته التاسعة يوم ١٩ يولييه سنة ١٨٨٢ في حماية قناة السويس من أن تصيبها الحرب بسوء. وذلك بناء على ما تظاهرت به إنجلترا من الخوف على القناة أن يسدها العرايون بعد ضرب الإسكندرية، وكان هذا الخوف مع الأسف لا محل به، لأن عرابي لم يفكر جديا في سد القناة، ولكن إنجلترا بادرت بالإسماعيلية أي في ٢٠ أغسطس، ولكن إنجلترا بادرت بمبادلة الدول تخوفها من هذه الناحية لكي تتحل لنفسها حق حماية القناة إذا لم تتفق الدول على حمايتها دوليا. . .

وقد عرض سفيراً إنجلترا وفرنسا فى المؤتمر بجلسة ١٩ يوليه فى رأى حكومتيهما فى أن يكمل المؤتمر إلى من يختار من الدول حماية القناة إذا أصابها اعتداء، ولم يلق هذا الاقتراح قبولا من المؤتمر، فاتفقت إنجلترا وفرنسا على أن يصرح سفيراهما فى المؤتمر بأنهما مستعدتان عند الحاجة إلى حماية القناة، وقد صرح السفيران بذلك فى جلسة المؤتمر الحادية عشرة التى انعقدت يوم ٢٦ يوليه، فلم يعترض المؤتمر ولم يبدأ احتجاجا.

وأبلغ الباب العالى أعضاء المؤتمر فى ٢٤ يوليه فى ٢٧ منه أن جنوده على أهبة السفر إلى مصر وأنه مستعد للتدخل فيها، ولكن بلاغه لم يتقرن بأى عمل، وعرضت وزارة المسيو دى فريسنيه على البرلمان الفرنسى فتح اعتماد لإعداد القوات الكفيلة بجعل القناة فى مآمن من كل اعتداء وحماية السفن المارة فيها، ولكن البرلمان قرر فى ٢٩ يوليه رفض الاعتماد المطلوب. . مما أدى إلى استقالة وزارة فريسنيه واضطرار التى خلفتها - وزارة دكلرك - إلى أن تنفض يدها من المسألة المصرية نزولا على قرار إلى أن تنفض يدها من المسألة المصرية نزولا بنفض يدها بل بإفلاس سياستها فى المسألة المصرية، والسبب الذى حد بالبرلمان الفرنسى إلى رفض الاعتماد هو الخوف من توزيع قوات فرنسا فى وقت كانت تخشى فيه على كيانها فى القارة الأوربية من تحفز ألمانيا، فهو نفس السبب الذى حدا بالوزارة الفرنسية إلى الأحجام عن مشاركة بريطانيا فى تدخلها الحربى حين عرضت عليها ذلك فى يوليه ١٨٨٢ قبل ضرب الإسكندرية.

وفى الوقت الذى أصدر البرلمان الفرنسى هذا القرار قرر البرلمان البريطانى فى ٢٧ يوليه الاعتماد المطلوب من الحكومة الإنجليزية للحملة على

مصر، وذلك بأغلبية ٢٧٧ صوتا ضد ٢١ صوتا أى بأغلبية تشبه الاجماع، وبلغ الاعتماد الذى قرره ٢٣٠٠٠٠٠ جنيه.

يتضح مما تقدم أن المؤتمر لم يكن يعنيه رد الاعتداء عن مصر، بل كل ما همه وشغل باله أمر قناة السويس . . . وقد انتهى من مباحثاته العقيمة إلى ترك الإنجليز يتصرفون كما تهوى أطماعهم الاستعمارية.

اجتمع المؤتمر للمرة الأخيرة يوم ٤ أغسطس سنة ١٨٨٢، وكانت الجنود البريطانية قد زحفت فى داخل البلاد وظهرت بوادر انتصارها على العربيين . . فلم يجد المؤتمر عملا يشغله سوى تأجيل انعقاده إلى أجل غير مسمى، ولم يجتمع بعدها إذ كانت قوات الإنجليز قد تغلبت على العربيين، وبذلك انطوت صفحة المؤتمر بدون أن يعمل عملا ما فى صون حقوق مصر، ورد عادية الإنجليز عنها، وأخفق إخفاقا جعله مضرب الأمثال فى المهازل السياسية الخالية من روح النزاهة والصراحة والإخلاص.
